استمارة المشاركة:

الاسم واللقب: مصطفى بوجملين
الدرجة العلمية: أستاذ محاضر -أ-
التخصص: النقد الأدبي ومصطلحاته
الجامعة: العربي بن مهيدي -أم البواقي-
البريد الالكتروني: safo.mosta87@gmail.com

عنوان المحور: مقاربات نقدية لنصوص أدب الطفل العربي

عنوان المداخلة: التيمة السلوكية في النص المسرحي الموجّه للطفل -(الطاووس)لـ: (محمد عزيز حسن) أنموذجا -

الملخص:

راهنت الأقلام المبدعة في فضاء الكتابة المسرحية الموجّهة للأطفال الناشئة على فضح تيمات شتى ومتباينة وسعت إلى تأطيرها عبر المحدّدات العمرية المتلقّية لها؛ ذاك بأنّ توجيه العمل الفنّي يتطلّب فكرا واعيا ناضجا وهندسة فنيّة بارعة متقنة.

وعليه، فقد ارتأينا معاينة موضوع مركزي مهم في النصّ المسرحي الموسوم بـ"الطاووس" للكاتب (عزيز محمد حسن)؛ والمتمثّل في "التيمة السلوكية" ؛ إذ سنحدّد المعالم الكبرى لها

وفيما يتعلق بالإشكاليات المحورية في هذه الدراسة النقدية، فإنّها نعرضها وفق الآتي:

1- ما السلوكيات الرئيسة في مسرحية "الطاووس" لـ: "عزيز محمد حسن"؟

2- وما الأهداف التربوية المضمّنة في المحاجات الخطابية بين شخصيات النصّ المسرحي؟

نص المداخلة:

مقدمة:

شكلّت الطفولة محور النظر والمعاينة داخل الأوساط المبدعة والناقدة، وذلك عبر مساهمتها في إثراء المشهد الأدبي بجملة الأعمال الفنّية الموجّهة للأطفال الناشئة والتي تراوحت بين القصّ السردي والتمثيل المسرحي بعدّهما وسيطين مهمين لتمرير الرسائل التربوية والأخلاقية والثقافية... .

ولا مراء في أن يضحى مسرح الطفل (Childhood) وسيطا «مركّب العناصر، يتوجّه لمرحلة عمرية طويلة ومتدرّجة من عمر الإنسان، ويتمايز مسرح الطفل عبر الوسائط الثقافية والإعلامية الموازية له في القدرة على مخاطبة عقل الطفل ووجدانه في أشكال فنّية متنوّعة لا تتوافر عناصرها في الوسائل الأخرى؛ كالكتاب والمجلة والإذاعة والتلفزة»[1].

ويحسن التنويه بأنّ المسرح يؤدّي «دورا تربويا يتجاوز تلقين الأفكار والمعلومات؛ إذ يعمل على تعليم الطفل أساسيات التعامل مع الناس ويحاول إكسابه عدّة خبرات تكون زادا له في مواجهة مصاعب الحياة فمسرح الطفل هو مسرح الحياة، مسرح اكتشاف الطفل لنفسه وللعالم حوله»[2].

ويذهب (يعقوب الشاروني) إلى قضية مهمة تتعلّق بخصوصية مسرح الطفل، والتي مقتضاها أنّ «المسرح الذي يقدّمه الكبار للأطفال هو المسرح الذي يمكن أن ينقل فكر المؤلف والمخرج إلى المشاهدين الصغار وإيجاد التوازن بين المضمون وبين عناصر المرح والفكاهة»[3].

كما يهدف هذا الفن الراقي إلى بناء الإحساس الجمالي عند الأطفال الناشئة«فكلّ ما يبثّه النص الدرامي الموجّه للطفل من قيم جمالية تؤثر في التكوين الجمالي للطفل، وتوقظ الإحساس بالجمال لديه وتؤدي إلى نوع من التكامل في السلوك الشخصي

للطفل، وتخضع القيمة الجمالية لوظيفتها التربوية كونه يفجّر داخل الإنسان كل طاقات الخير»[4].

وانطلاقا من الأطروحة الآنفة، فإنّنا سنعاين تيمة أساسا في النصوص المسرحية الموجّهة للطفل، والتي تأخذ طابعا أخلاقيا تربويا، والمتمثّلة في (السلوك)؛ إذ سننظر في الأفعال السلوكيات داخل المتن المسرحي المعنون بـ: (الطاووس) لـ: (عزيز محمد حسن)[*]، وكذا إبراز بعض التمظهرات الجمالية المتعاضدة معها، متّخذين في ذلك المقاربة الموضوعاتية منهجا في دراسة التيمات المركزية في هذا النّص؛ وبيان ذلك القراءة النقدية الآتية:

2- تمظهرات التيمة السلوكية في مسرحية (الطاووس) -التعالي/التواضع- أنموذجا:

لا مشاحة في أنّ يغدو السلوك فعلا وتصرفا ناجما عن القيم المثبّتة في الشخص والمتلازمة معه؛ ذاك بأنّها «موجّهات السلوك أو العمل ومعنى ذلك أنّ مجموعة القيم التي يعتنقها شخص من الأشخاص هي التي تحرّكه نحو العمل، وتدفعه إلى السلوك بطريقة خاصة، ويتّخذها مرجعه في الحكم على سلوكه بأنّه مرغوب فيه أو مرغوب عنه ولا شك أنّ أثر ذلك يعود على المجتمع خيرا أو شرا طيقا لنمط السلوك وكيفيته، والمرجع القيمي له. وكلّما كان الإطار القيمي لمجتمع من المجتمعات يضمّ مجموعة من القيم الخلقية التي لها وزنها واعتبارها فإنّ مسار الحياة، في ذلك المجتمع يرقى وينهض»[5].

وعليه، فإنّنا سنعاين المظهرين السلوكين المركزيين داخل نصّ (الطاووس)؛ والمتمثّلان في التالي:

2-1 التعالي والتعاظم:

لا مراء في أنّ سمتي (التعالي/التعاظم) تلخّصان شكلا سلوكيا سلبيا ومقيتا؛ فهما عنوانان يفضحان خلقا ذميما هو "الكبر"؛ والذي تتّصف به النفوس المريضة

والسلبية والمضطربة، فهو المؤشر الواضح لتفكّك العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد؛ والمولّد للشقاق والمقاطعة بينهم

ولقد ذمّ الله -سبحانه وتعالى- خلق التعالي والكبر في آيات عدّة؛ ومنها قوله -عز وجل- : ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي اَلَارْضِ مَرَحاً اِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ اَلْجِبَالَ طُولاً**﴾. سورة الإسراء [الآية: 37]. أمّا في الحديث النبوي الشريف، فإنّنا نلفي أيضا تنبيها وتحذيرا من هذا السلوك المشين؛ ومثال ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر! فقال رجل: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة؟ قال: إنَّ اللَه جميل يحبُّ الجمال، الكبر: بطر الحقِّ وغمط النَّاس**»[6].

وانطلاقا من ذلك فإنّنا سنعاين الشواهد النصّية المتعلقة بهذا السلوك في هذا العمل المسرحي؛ وتحديدا عند الشخصية المحورية (الطاووس)؛ والتي أفسح لها المبدع فضاء نصّيا مهما، عبر حواراتها العديدة؛ سواء مع الشخصية المضادة لها (الغراب)؛ أو مع ذاتها -المونولوج الداخلي-.

وقبل البتّ في تفاصيل الاقتباسات النصّية، فإنّه حريّ بنا النظر في التراكمية الثقافية لهذا الطائر، والذي تفاوتت دلالته ورموزه بين الحضارات القديمة؛ إذ «عرف الإنسان الطاووس منذ أقدم العصور ويشار إلى أنّ بعض الفراعنة وملوك آسيا الصغرى احتفظوا به في حدائقهم وقصورهم، ومن المحتمل أن يكون الفينيقيون هم الذين عرفوهم به، إلا أنّه لم يظهر رمز الطاووس في الفن المصري القديم، وقد كانت هناك أسطورة قديمة مرتبطة بالطاووس بأنه يطرد الأرواح الشريرة. كما كانت هناك أسطورة أخرى عند الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد بأن معبودتهم "هيرا" Héra إله السماء قد ولدت من ذيل طائر الطاووس. ومن هنا ربطوا بين الطاؤوس ورمزيته للسماء»[7].

وتتمة لهاته المدلولات القديمة، فإنّنا نجد الفن المسيحي مستعملا إيّاه رمزا «للخلود والأبدية والقيامة وبهاء الفردوس، وربّما هذا الرمز ينبثق من جمال وألوان ريش

الطاووس أو من الأساطير التي تقول إنّ لحم الطاووس لا يفسد ولا يتحلل بعد موته كسائر الطيور»[8].

ولقد أشار الكاتب (عزيز محمد حسن) في نصّه المسرحي إلى مشاهد التعالي في سلوكيات (الطاووس) في مواطن عدّة؛ والتي استهلت بالصوت الذي دوّى داخل قاعة المسرح والذي نصّه المقطع النصّي الآتي:

«يحكى يوما أنّ طيرا قد ارتفع

طار وعلا، ثمّ بعدها وقع

فكلّ من اختال غرورا وامتنع

فكما الحجارة عن القمم وقع»[9].

فهنا، برزت مظاهر التكبّر والتعالي في شخصية (الطاووس) عبر ملفوظي (اختال/غرورا) واللذين يشيان بالترفّع المقيت، الذي يصيب نفسية صاحبه، ويجعله منحازا إلى ذاته بعدّها النموذج المثالي الذي لا يضاهيه أو يناظره أحد. ولكنّ مبدع النصّ لم يترك هاته التيمة السلوكية في سكونية وثبات عند المتلقي لها -وخاصة الأطفال الناشئة تخصيصا-، إذ سعى إلى كشف اللثام عن المآل والنهاية الحتمية المقترنة بكلّ من ألزمها لذاته؛ فهي مؤشر الانحدار والتهاوي والذي أشار إليه عبر صورة تشبيهية منتزعة من الطبيعة، وهي: (**فكما الحجارة عن القمم وقع**).

كما وضعنا المبدع أمام صورة عجبه بذاته، بعد ولوجه ركح المسرح؛ فنراه قائلا: **«يدخل الطاووس متبخترا وهو ينظر في مرآة يحملها بيده، ويظهر عليه الإعجاب بنفسه»**[10].

فهنا يضيف المبدع للطفل مسمّيات أخرى لهذا التعالي؛ وذلك عبر مفردتين دالتين على هذا السلوك السيئ المشين؛ والمتمثّلتين في: (متبخترا/الإعجاب بنفسه)؛ وذلك بغية ترسيخ هذا اللون السلوكي السلبي في ذهن الناشئة، والحث على درئه وتركه.

ويمضي (محمد عزيز حسن) في تبيان مثال آخر لهذه اللوحة السلوكية السوداء؛ والتي مثّلها خطاب تهكمي استفزازي موّجه إلى شخصية (الغراب)؛ إذ نصّب (الطاووس) نفسه سيّدا عليه؛ وهو مؤشر أخلاقي فاسد أراد أن يوصله المبدع إلى قرائه الصغار، كي لا يراهنوا على تكريس هذا الفعل التصنيفي المسيء للآخر، وليبيّن لهم مزالق التفاضل بينهم في أشياء فانية بائدة؛ فالجمال يظلّ ديكورا زمنيا، ومسألة دوامه واستمراره هدف مستحيل تحقيقه. وهذا ما دلّ عليه قوله:

«هل تريد أن تساوي الأسياد؟

لتكون عن سواد ريشك راضيا»[11].

فهذا الشاهد النصّي يفضح علامية الترفّع لدى شخصية (الطاووس)؛ إذ سعى إلى تثبيت زعامته وسيادته عبر سؤال استفهام تهكمي ساخر بالآخر (الغراب)، وكذا نظرته الدونية للسواد الذي لفّه. وهنا نستقرئ الخطاب المسكوت عنه في هذا المقطع المسرحي؛ إذ أراد المبدع تجليّة الصورة الاستعبادية الظلامية للأطفال الناشئة وذلك قصد تخطيها وتجاوزها لأنّها ستصنع الطبقية المنبوذة بين أفراد المجتمع الواحد. أمّا قضية التباهي بالألوان، وتفضيل أحدها على الآخر فهي المسألة الإشكالية التي أراد فكّ عقدتها، والتي تتمثّل في السلوك العنصري؛ حيث ارتأى بعث رسالة المساواة والعدل للناشئة، وتعزيز القيم الإيجابية الهادفة.

2-2 التواضع والتشارك:

يعدّ خلق التواضع سلوكا نبيلا يرفع منزلة المتّصف به، فكلما كان الدنو منه كانت العظمة -على حدّ تعبير الفيلسوف طاغور-. ولقد أشارت إليه نصوص شرعية عدّة، وحكم، وأشعار وأمثال، وذلك لعظم هذا المبدأ وأثره النفعي على المستويين الفردي والجماعي؛ فالتواضع من أجلّ مكارم الأخلاق؛ وصفة محمودة حثّ عليها الله تعالى في

قرآنه المجيد؛ ومن ذلك قوله -عز وجلّ -:﴿**وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا**﴾. سورة الفرقان [الآية: 63]. وورد فضل التواضع في الحديث النبوي الشريف، ومثاله قوله (صلى الله عليه وسلم): **«إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ»**[12].

أمّا مبدأ (التشارك) فهو خلق فاضل ميزته إسداء العون والخدمة للآخر، دون النظر في مصلحية الغاية، ومن ثمراته زيادة أواصر اللحمة والتعاضد والتكاتف. كما أنّه فعل إنساني نبيل بين أفراد الجماعة المتّحدة والمتضامنة فيما بينها لغايات هادفة وإيجابية. وإنّ خير ما نستدل به -ههنا- لبيان قيمة هذا السلوك قوله تعالى -في محكم تنزيله-: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.سورة المائدة [الآية: 3]

وتمثيلا لهذين اللونين الإيجابين من السلوك، فإنّنا نلفي الكاتب (محمد عزيز حسن) مستجلبا شخصية (الغراب) لتمرير الرسالة الأخلاقية عبره؛ إذ أقصى المؤشرات الثقافية السلبيةعن هذا الطائر، والتي كان أبرزها: القبح الفراق، الموت...وغيرها؛ واستبدلها بخصال حميدة إيجابية؛ فقد وسمه بالشخصية المحبّة المتواضعة المتعاونة فأمّا بخصوص المظهر التواضعي ، فقد كشف عنه في سياقات عدّة في هذه المسرحية إذ نستهلها بقوله:

«ما هذا الكلام؟ فكلّنا واحد

خلقنا الله العظيم الواجد»[13].

فهنا، نقف أمام المحاجة بين (الغراب/الطاووس)؛ حيث كشف المبدع السلوك الراقي لدى شخصية (الغراب) والذي بعث لنظيره المغرور (الطاووس) رسالة الائتلاف والتضام والوحدة؛ ذاك بأنّ الله الواحد الصمد، المتفرّد في عليائه، أوجد الخلق، وصنع الاختلاف والتمايز في مخلوقاته؛ ولا يمكن -بأي حال من الأحوال- إثارة النزعة التعصبية المقيتة المحمومة وبالتالي، فإنّ مقولة (الغراب) تشي بنبل شخصيته

المتواضعة؛ والتي لم ترفع عقيرتها المستهجنة لمخاطبها، وتعلن مقامها العالي أو تجلي شأنها المتسامي عنه.

وفي سياق نصّي آخر، فإنّه استوقفنا ملمح تواضعي في شخصية (الغراب)؛ حيث أرسى معالم الخطاب التلاحمي مع صديقه (الطاووس)؛ وبيّن أهمية الاتحاد والعمل الجماعي، ونبذ الرؤية الفوقية الاستعلائية. وهذا ما نقرؤه في المقطع التالي:

«كلّنا نحتاج إلى بعضنا

ما دمنا نعيش هنا كلّنا

فواحدنا يخدم الآخـر

بلا أمـر ولا آمـر»[14].

وفيما يتعلّق بسلوك التشارك، فإنّ الكاتب قد جلّاه في مواضع نصّية عديدة؛ وذلك قصد تبيان أهمية هذا الصنيع الجميل بين أفراد المجتمع الواحد؛ والذي سيقوّي أواصر الأخوة والمحبّة بينهم فنجده قائلا -مثلا-:

«كلّنا في غابة الحياة

علينا أن نكون يدا في ساعد واحد»[15].

فهنا، يعرض قيمة التشارك عبر مبدأ الوحدة؛ إذ أكّد (الغراب) لصاحبه (الطاووس) حتمية التكاتف والتشارك، والتي دلّت عليهما جملة: (يدا في ساعد واحد). ولقد دلّل على هذا الهدف بكون الحياة غابة، والتي تعرف بمسالكها الصعبة، وأحراشها المتشابكة ووحشتها المفزعة . ولعلّ هذه الدلالات السلبية تفرض لزاما التشبّث بمبدأ الشراكة والتعاون والتعاضد بينهما.

كما التفت إلى هذا المبدأ السلوكي الإيجابي في موضع نصّي آخر؛ حيث ارتأى أن يبعث للأطفال الناشئة ثمرة التشارك بين الأفراد؛ والمتمثّلة في انفراج الأزمة، ومباركة الخالق -عز وجل- لهؤلاء المتضامين فيما بينهم، ونصّ ذلك قوله:

«ونحن معا في حلّ أزماتنا نشارك

وبوحدة قلوبنا سيعيننا الله ويبارك»[16].

ومن خلال الشواهد المسرحية السابقة، فإنّنا نخلص إلى أهمية بناء سلوك التعاون والتشارك وجعلهما مرتكزين أساسين في مواجهة وقائع الحياة، ذاك بأنّ تضافر الجهود يقود حتما إلى ضفة النجاح والأمان.

3- خاتمة:

في ختام هذه القراءة النقدية للتيمة السلوكية في هذا العمل المسرحي الموجّه للأطفال الناشئة، فإنّنا نخلص إلى جملة من النتائج العلمية، والتي نسوقها في التالي:

1- شكّلت التيمة السلوكية بشتى أبعادها وتفرعاتها؛ الدينية، والأخلاقية، والثقافيةوالتربوية والتعليمية حجر الأساس في الكتابات المسرحية الموجّهة للأطفال؛ ذاك بأنّها تحمل رسالة هادفة ونبيلة تدعم تنمية أفكارهم، وتقوّم أفعالهم وتصرفاتهم.

2- ابتكار المبدع لشخصيتي (الطاووس/الغراب) ليكونا مرتكزا عمله الفنّي ينمّ عن معرفته الواسعة والعميقة بهما؛ ذاك بأنّهما محورا التساؤلات الثقافية والعلمية منذ القدم وإلى زمننا الراهن.

3- طرق الكاتب مسألة "الغرور" في شخصية "الطاووس"؛ وبسطه خطاباته المتعالية المتكبّرة هو بمثابة الإفصاح عن مزالق هذا السلوك الذميم المقيت؛ وخاصة أنّه أعلن في الخاتمة النصّية لهذا العمل عدوله عنه، وايمانه بالأخوة والمحبة للآخر، واعترافه بخطئه الجسيم حينما اعتدّ بالعجب والتعاظم المزيّف.

4- سعى المبدع إلى درء الصورة السلبية المتوارثة عن "الغراب"، وإقصائها، وجعله أنموذجا طيبّا ومتعاونا ومحبّا للآخر؛ كما جعله "المخلص" الوحيد للطاووس، بعد أن وقع في شبكة الصيّاد.

الهوامش:

[1] أحمد زلط، أدب الطفل العربي: دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، دار هبة، القاهرة، مصر، ط 1، 1998 ص196.

[2] يومبعي جميلة، حوار الخصائص الفنية للنص المسرحي مع مقومات العرض والإخراج (مسرح الطفل أنموذجا)، مجلة العلامة جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، ع2، 2016، ص346.

[3] أبو الحسن سلام، مسرح الطفل، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004، ص79.

[4] مكي محمد حسون، جماليات بنية النص الدرامي الموجهة للأطفال، مجلة القادسية، الكويت، مج 17، ع2، 2017 ص152.

(*) باحث أكاديمي وكاتب عراقي. له منجزات أدبية في مجال الكتابة المسرحية، نذكر منها الآتي: (مسرحية شهرزاد والليلة الأخيرة -نص مرحي طويل-)، (واحد من البشر-عشر نصوص مسرحية للكبار-)، (الطاووس-عشر نصوص مسرحية للأطفال-).

[5] فاتن سليم بركات، مدى توافر القيم في عيّنة من قصص الأطفال في سورية، مجلة جامعة دمشق، سوريا، مج 26، ع32010، صص206-207.

[6] النووي، مختصر صحيح مسلم، تح: أبو محمد أحمد صالح الشوادفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2011 ج1، ص73.

[7] صالح العطوان الحيالي، أسطورة الطاووس ورمزيته في الحضارات المختلفةhttps://jeelaljadeed.blogspot.com 2020-04-17، 11:00.

[8] الموقع الإلكتروني نفسه.

[9] محمد عزيز حسن، الطاووس (عشر مسرحيات للأطفال)، دار الكتب والوثائق، بغداد، العراق، (د.ط)، 2018 ص10.

[10] المصدر نفسه، ص10.

[11] المصدر نفسه، ص13.

[12] النووي، مختصر صحيح مسلم، تح: أبو محمد أحمد صالح الشوادفي، ج2، ص444.

[13] محمد عزيز حسن، الطاووس (عشر مسرحيات للأطفال)، ص12.

[14] المصدر نفسه، ص12.

[15] المصدر نفسه، ص12.

[16] المصدر نفسه، ص20.